فلسَفة عَلم المُعرفة

للكاتب السوداني

موسى الحاج مرشود

فلسفةُ عِلْمِ المَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ:

لِكُلِّ إِنْسَانٍ ظَوَاهِرُ إِنْسَانِيَّةٌ تَخْتَلِفُ عَنِ الْآخَرِ، حَسَبَ الْعَقْلِ وَالْإِدْرَاكِ لِلْحَيَاةِ. وَلِكَيْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا عَلَى إِدْرَاكِ ظَوَاهِرِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ، يَعْتَمِدُ عَلَى عِدَّةِ أَسْبَابٍ:

١/ **الْعِلْمُ**،

٢/ **الْإِدْرَاكُ**،

٣/ **الْعَقْلُ**،

٤/ **الْمَعْرِفَةُ**.

وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى أَيِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ لِيُدْرِكَ حَقَائِقَ الْبَشَرِ، سَوَاءٌ كَانَتْ سَابِقَةً أَوْ حَاضِرَةً أَوْ مُسْتَقْبَلَةً. مِنْ هُنَا بُنِيَ الْعِلْمُ فَرِيضَةً عَلَى الْأُمَّةِ الْبَشَرِيَّةِ لِإِدْرَاكِ مَعْرِفَةِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ. لِذَلِكَ لَا يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ عَنْ فَرَاغٍ وَلَا عَنْ صُدْفَةٍ، بَلْ هُوَ الْحَاكِمُ الْأَوَّلُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ اللّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. لَكِنَّ فَلَاسِفَةَ الْغَرَبِ جَعَلُوا مُثَقَّفِي الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ بَعِيدِينَ عَنِ الْحِسِّ الْوُجُودِيِّ لِلّٰهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلِمَعْرِفَةِ ظَوَاهِرِ الْبَشَرِ، تَعْتَمِدُ عَلَى الْآتِي:

أَوَّلًا: أَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَلْهِمَ هَذِهِ الْأَسْئِلَةَ: (كَيْفَ؟ وَمَتَى؟ وَأَيْنَ؟ وَلِمَاذَا؟). وَمَيُولُ وَرَغْبَةُ الشَّخْصِ السَّائِلِ تُوَضِّحُ حَقَائِقَ الشَّيْءِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تَوْجِيهِ الْأَسْئِلَةِ الْمُقَدَّمَةِ.

ثَانِيًا: صِفَةُ الْمُعَامَلَةِ مَعَهُ تَكُونُ عَلَى أَسَاسِ الصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، لِكَيْ تُدْرِكَ مَاذَا يُرِيدُ.

ثَالِثًا: التَّحَرِّي مِنْهُ جَيِّدًا عَلَى أَسَاسِ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ، وَهَذِهِ تُوَضِّحُ: *«كُلُّ مَا يَكْمُنُ فِي النَّفْسِ يَظْهَرُهُ اللِّسَانُ»*، سَوَاءٌ كَانَ عَلَى أَسَاسِ الْحَقِيقَةِ أَوِ الْكَذِبِ. لِذَلِكَ إِنَّكَ تَفْهَمُ شَخْصِيَّةَ الْبَشَرِ الَّذِي يُرِيدُ تَوْضِيحَ شَيْءٍ مَا.

مِثَالٌ يُوَضِّحُ الْهَيْئَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ لِجِهَازٍ مَعْلُومَاتِيٍّ بَشَرِيٍّ:

مَثَلًا، هَذَا الْجِهَازُ يَخْتَصُّ بِجَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ وَفْقًا لِمِعْيَارِ الْمَعْرِفَةِ، وَدِرَاسَةِ الشَّخْصِ وَفْقًا لِعِلْمِ النَّفْسِ التَّرْبَوِيِّ أَوْ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ التَّرْبَوِيِّ. وَهَذَا الْعِلْمُ يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ الشَّخْصِ وَنَشَاطِهِ النَّفْسِيِّ أَوِ الْحَرَكِيِّ حَوْلَ مُجْتَمَعِهِ الْبَشَرِيِّ. وَهَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ تُجْمَعُ عَنْ طَرِيقِ أَجْهِزَةٍ حُكُومِيَّةٍ لِلدَّوْلَةِ، وَتَتَمَثَّلُ هَذِهِ الْأَجْهِزَةُ فِيمَا يَلِي:

١/ **جِهَازٌ مَعْلُومَاتِيٌّ بَشَرِيٌّ:** يَتَمَثَّلُ فِي هَيْئَةِ الدَّوْلَةِ لِجَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ. وَهَذَا

النَّوْعُ مِنَ الْأَجْهِزَةِ تَقْلِيدِيٌّ، وَلَكِنَّهُ مُهِمٌّ جِدًّا حَتَّى تَارِيخِ الْيَوْمِ.

٢/ **جِهَازٌ مَعْلُومَاتِيٌّ إِلِكْتِرُونِيٌّ:** يَتَمَثَّلُ فِي:

- الْإِتِّصَالَاتِ.
- الرَّادَارَاتِ.
- الْأَقْمَارِ الصِّنَاعِيَّةِ.
- كَامِيرَاتِ الْمُرَاقَبَةِ.

كُلُّ هَذِهِ الْأَجْهِزَةِ تَخْتَصُّ بِدِرَاسَةِ جَمْعِ الْمَعْلُومَاتِ بِصُورَةٍ دَقِيقَةٍ، إِذَا كَانَ لَهَا مُدِيرٌ فَنِيٌّ يُدِيرُهَا عَنْ طَرِيقِ الْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ. لَكِنَّ رَغْمَ ذَلِكَ، صَارَ الْعَالَمُ تَحْتَ يَدِ الْاِسْتِبْدَادِ وَالْهَيْمَنَةِ الْجَبَّارَةِ عَلَى الْعَالَمِ، بِمِعْيَارِ التَّسَلُّطِ عَلَى الْمَالِ الْعَامِّ وَالْمَصَالِحِ الْفَرَدِيَّةِ.

عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ إِدَارَةِ أَيِّ مَجْمُوعَةٍ أَوْ قَوْمٍ، يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَاحِبَنَا قِيَمُ الْعَدَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَسِيَادَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ أَوِ الْوَضْعِيَّةِ، وَفْقًا لِمِعْيَارِ

الصِّدْقُ وَالأَمَانَةُ وَتَوَازُنُ مِيزَانِ الأَخْذِ وَالعَطَاءِ، وَهُنَا تَتَلَخَّصُ الأَحْكَامُ مِن كُتُبِ التَّدَيُّنِ، لَيْسَتْ مِنَ الكُتُبِ الوَضْعِيَّةِ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللهِ شَامِلٌ لِلأَحْكَامِ وَالأَخْلَاقِ وَالقِيَمِ وَتَوَازُنِ الحُقُوقِ بَيْنَ البَشَرِ. أَمَّا كُتُبُ البَشَرِيَّةِ الوَضْعِيَّةِ فَتَخْضَعُ لِمَفْهُومِ المُؤَلِّفِ حَسَبَ عَقْلِهِ وَثَقَافَتِهِ وَقِيَمِهِ وَأَخْلَاقِهِ، لِذَلِكَ تَخْضَعُ لِلخَطَأِ مِثْلَمَا تُخْطِئُ الآخَرِينَ، مِنْ حَيْثُ مَبَادِئُ البَشَرِيَّةُ.

عِندَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الحُكْمِ، بِمَعْنًى نَتَحَدَّثُ عَنْ قِيَمِ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَتَوَازُنِ الحُقُوقِ بَيْنَ البَشَرِ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ وَأَطْفَالٍ وَعَاقِلِينَ وَغَيْرِ عَاقِلِينَ. وَهُنَا إِذَا مَثَّلْنَا نَظَرِيَّةَ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ:

(كُلَّمَا تَفَشَّى مِيزَانُ العَدَالَةِ كُلَّمَا قَلَّ الظُّلْمُ، وَكُلَّمَا تَفَشَّى الظُّلْمُ كُلَّمَا قَلَّ مِيزَانُ العَدَالَةِ).

وَهَذِهِ النَّظَرِيَّةُ تُسَمَّى بِنَظَرِيَّةِ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَلَهَا مَدْلُولَاتٌ كَبِيرَةٌ فِي إِدَارَةِ المُجْتَمَعِ وَإِدَارَةِ القُوَّى البَشَرِيَّةِ. وَهِيَ تَتَحَدَّثُ عَنْ قِيمَةِ العَدَالَةِ وَفْقًا لِلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ. إِذَا كَانَ المُجْتَمَعُ تَحْتَ مَنْظُومَةِ سِيَادَةٍ

تُمَثِّلُهُ حَوْلَ العَالَمِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ سِيَادَةٌ يَتَمَحْوَرُ وَفْقًا لِلعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ، فَهُوَ جَدِيرٌ بِالأَعْرَافِ وَالقَوَانِينِ وَالأَحْكَامِ.

أَمَّا الدَّوْلَةُ فَتُخْتَلِفُ عَنْ أَيِّ كِيَانٍ مُجْتَمَعِيٍّ يُمَثِّلُ قُوًى بَشَرِيَّةً مُعَيَّنَةً، وَلِذَلِكَ تُقَامُ الدَّوْلَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

1. الشَّعْبُ.
2. الأَرْضُ.
3. النِّظَامُ الحُكُومِيُّ.

إِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ العَنَاصِرُ الثَّلَاثَةُ، تُمَثِّلُ الدَّوْلَةَ. أَمَّا المَفْهُومُ اللُّغَوِيُّ مِنْ نَاحِيَةٍ عَرَبِيَّةٍ فَيَعْنِي العُقْبَةَ فِي المَالِ وَالحَرْبِ. سَوَاءٌ بِالضَّمِّ تَعْنِي المَالَ، وَبِالفَتْحِ تَعْنِي الحَرْبَ. وَأَيْضًا بِالضَّمِّ تَعْنِي الآخِرَةَ، وَبِالفَتْحِ تَعْنِي الدُّنْيَا. وَلِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [سُورَةُ الحَشْرِ: 7].

فِي هَذِهِ الحَالَةِ رُفِعَتِ الدَّالُ وَأَصْبَحَتْ كَلِمَةُ "دَوْلَةٍ" تَعْنِي القُوَّةَ المُمِيتَةَ أَوِ الحَرْبَ. وَقَالَ الشَّاعِرُ

السُّودَانِيُّ:

هُمْ كَالدَّالَةِ أَشْهَرُوا ثَأْرَهَا

جَحِيمًا كَالْجَيْشَيْنِ دُوَلَ

وَهَنَا الْقَاتِلُ يُوَضِّحُ أَنَّ الجَيْشَيْنِ هُمَا بَيْنَ الثَّأْرِ وَالجَحِيمِ مِنَ المَوْتِ، وَكَلِمَةُ "دُوَلَةَ" هُنَا تَعْنِي الحَرْبَ. إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ "دُوَلَةٍ" هِيَ المَالُ وَالحَرَبُ سَوَاءً، وَلَكِنْ كُلُّ عُلَمَاءِ الأَفْكَارِ الوَضْعِيَّةِ لَهُمْ مَفْهُومٌ أَنَّ البَشَرَ لَهُمْ أُسُسٌ فِكْرِيَّةٌ تَتَبَنَّى عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ.

إِذًا، إِذَا جُمِعَتِ الأَرْضُ وَالشَّعْبُ وَالنِّظَامُ الإِدَارِيُّ، وَلَكِنَّ نُظُمَ إِدَارَةِ الدَّوْلَةِ تَخْتَلِفُ تَمَامًا عَنْ نُظُمِ المُنَظَّمَاتِ الخَيْرِيَّةِ أَوِ الجَمْعِيَّاتِ أَوِ الاتِّحَادَاتِ. وَمِنْ هُنَا، عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الدَّوْلَةِ، نَتَحَدَّثُ عَنِ النِّظَامِ الإِدَارِيِّ لِلدَّوْلَةِ، وَلِأَيِّ دَوْلَةٍ نُظُمٌ تَخْتَلِفُ عَنْ بَقِيَّةِ الدُّوَلِ الأُخْرَى، وَفْقًا لِهَوِيَّةِ الشَّعْبِ وَالعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الَّتِي يُمَارِسُهَا النَّاسُ. وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُوَضِّحَ هَيْكَلَ الدَّوْلَةِ بِنِظَامٍ يُوَافِقُ عَقْلِيَّةَ البَشَرِيَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

أَوَّلًا: مَا هِيَ الأُسُسُ الَّتِي تُبْنَى عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ؟ وَلِكَيْ نُجِيبَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، عَلَيْنَا أَنْ نُدْرِكَ تَمَامًا المَعْرِفَةَ التَّامَّةَ لِمُكَوِّنَاتِ الدَّوْلَةِ، مِنْ حَيْثُ الثَّقَافَةُ وَالقِيمُ وَالأَخْلَاقُ وَالأُسُسُ الفِكْرِيَّةُ الَّتِي تُبْنَى عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ. لَهَا خَوَارِزِمِيَّاتٌ أَسَاسِيَّةٌ، مِنْهَا:

١. النِّظَامُ القَانُونِيُّ.

٢. هَيْئَةُ نِظَامِ حِمَايَةِ القَانُونِ.

٣. نِظَامُ الأَمْنِ القَوْمِيِّ.

٤. النِّظَامُ الاجْتِمَاعِيُّ.

٥. النِّظَامُ الاقْتِصَادِيُّ.

٦. النِّظَامُ العَسْكَرِيُّ.

٧. نِظَامُ العَلَاقَاتِ الخَارِجِيَّةِ.

٨. نِظَامُ الأَمْنِ الدَّاخِلِيِّ.

٩. نِظَامُ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ.

١٠. نِظَامُ القَوْمِيَّةِ الشَّعْبِيَّةِ.

١١. النِّظَامُ التَّعْلِيمِيُّ.

١٢. النِّظَامُ الصِّحِّيُّ.

١٣. نِظَامُ المِحْوَرِ الجُغْرَافِيِّ.

١٤. نِظَامُ التِّجَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالخَارِجِيَّةِ.
١٥. نِظَامُ العَلَاقَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ حَوْلَ العَالَمِ.

هَذِهِ الخَوَارِزِمِيَّاتُ السَّبْعَ عَشَرَ تُوَضِّحُ جُزْءًا مِنْ مُؤَسَّسَاتِ الدَّوْلَةِ القَوْمِيَّةِ، وَفْقًا لِمِيثَاقِ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ.

مَاذَا تَعْنِي الخَوَارِزِمِيَّةُ (١)؟ هِيَ خَوَارِزِمِيَّةُ النِّظَامِ القَانُونِيِّ. عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ القَانُونِ، نَتَحَدَّثُ عَنِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالوَضْعِيَّةِ مَعًا لِحُكْمِهِمْ وَتَنْظِيمِ حَيَاتِهِمْ وَفْقًا لِلعَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. القَانُونُ الَّذِي يُنَظِّمُ حَيَاةَ النَّاسِ يَنْقَسِمُ إِلَى أَحْكَامٍ عَدِيدَةٍ، وَمِنْهَا:

١. القَانُونُ الجِنَائِيُّ.
٢. القَانُونُ المَدَنِيُّ.
٣. قَانُونُ مُكَافَحَةِ الإِرْهَابِ.
٤. قَانُونُ مُكَافَحَةِ المُخَدِّرَاتِ.

هَذِهِ الأَحْكَامُ تُنَظِّمُ المُجْتَمَعَ بِصُورَةٍ تُوَاكِبُ حَيَاةَ البَشَرِ مِنْ نَاحِيَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ. وَمِنْ هَذِهِ الأَحْكَامِ

تُسَنُّ الأَحْكَامُ الجِنَائِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ وَالمَدَنِيَّةُ. وَالقَانُونُ يُنَظِّمُ حَيَاةَ النَّاسِ وَفْقًا لِلأَحْكَامِ، سَوَاءٌ كَانَتْ دَاخِلِيَّةً أَمْ خَارِجِيَّةً.

مِنْ أَيْنَ تَسْتَمِدُّ الأَحْكَامُ الَّتِي تَحْكُمُ البَشَرَ؟ هَذِهِ الأَحْكَامُ تَسْتَمِدُّ مِنْ كُتُبِ العَقَائِدِ (الدِّينِ)، وَكَذَلِكَ العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالنُّظُمِ السِّيَاسِيَّةِ. إِذَا كَانَ الشَّعْبُ مُسْلِمًا، يُسَنُّ لَهُ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُسْلِمٍ، يَتَّخِذُونَ النِّظَامَ السِّيَاسِيَّ أَسَاسًا لِمَصَادِرِ التَّشْرِيعِ.

مَثَلًا: إِذَا تَحَدَّثْنَا عَنْ أَمْرِيكَا وَالصِّينِ، نَجِدُ أَنَّ الأَمْرِيكَانِ لَهُمْ نِظَامٌ سِيَاسِيٌّ اجْتِمَاعِيٌّ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ نَاحِيَةٍ سِيَاسِيَّةٍ، يَحْكُمُهُمُ النِّظَامُ الدِّيمُقْرَاطِيُّ بَيْنَهُمْ كَشَعْبٍ يُؤْمِنُ بِالدِّيمُقْرَاطِيَّةِ أَكْثَرَ مِنَ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ لَهُمْ حِزْبَيْنِ بَيْنَ مُجْتَمَعٍ مُثَقَّفٍ يَخْتَلِفُ فِي العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَالأَعْرَاقِ، لَكِنَّهُمْ نَاجِحِينَ فِيهِ عَلَى حَسَبِ الصَّحْوَةِ العَقْلِيَّةِ لَهُمْ.

أَمَّا الصِّينُ كَدَوْلَةٍ شُيُوعِيَّةٍ، فَتَخْتَلِفُ عَنْهُمْ فِي المَبَادِئِ وَالقِيمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، مِنْ حَيْثُ الحُكْمِ وَالتَّنْمِيَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. فَهُمْ يَخْتَلِفُونَ عَنِ النَّاسِ لِأَسْبَابٍ عَدِيدَةٍ، وَمِنْهَا أَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَ الدِّيمُقْرَاطِيَّةَ -بِالنِّسْبَةِ لِلأَمْرِيكَانِ- قِيمَةً مُثْلَى وَعَادَاتٍ وَتَقَالِيدَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُغَيِّرَهَا أَحَدٌ أَوْ مَجْمُوعَةٌ، وَفْقًا لِمِعْيَارِهِمُ الأَخْلَاقِيِّ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلصِّينِ كَدَوْلَةٍ شُيُوعِيَّةٍ، فَهُمْ يَعْتَبِرُونَ الشُّيُوعِيَّةَ حَضَارَةً وَنِظَامًا لَيْسَ لَهُ مِثِيلٌ فِي مَسَاوَاةِ حُقُوقِ النَّاسِ. وَلِذَلِكَ نَجِدُهُمْ لَهُمُ التَّقَدُّمَ مِنْ نَاحِيَةِ النُّمُوِّ الاقْتِصَادِيِّ وَالصِّنَاعِيِّ وَالأَمْنِ وَالهَيْمَنَةِ عَلَى الشُّعُوبِ، وَفْقًا لِمِعْيَارٍ يَجْعَلُهُمْ صَحْوَةً لَهَا مَكَانَتُهَا عَلَى العَالَمِ، وَفْقًا لِلاتِّفَاقِيَّاتِ الَّتِي أُبْرِمَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَيِّ جُمْهُورِيَّةٍ أُخْرَى.

إِلَّا أَنَّنَا نَحْنُ كَمُسْلِمِينَ لَنَا قِيمٌ وَأَخْلَاقٌ وَنِظَامٌ إِسْلَامِيٌّ ذُو مِيزَانٍ عَادِلٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَشْرِيعٌ رَبَّانِيٌّ قَوْمِيٌّ وَشَامِلٌ لِكُلِّ الحُقُوقِ حَوْلَ العَالَمِ، مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ وَأَطْفَالٍ، وَصُمٍّ وَبُكْمٍ وَعُمْيٍ، وَمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ مُسْلِمِينَ،

وَيَهُودٍ وَنَصَارَى. وَرَغْمَ ذَلِكَ، لَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مَنْ يُطَبِّقُ هَذَا النِّظَامَ مُنْذُ دَوْلَةِ الخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ (أَبِي بَكْرٍ، وَعَلِيٍّ، وَعُثْمَانَ، وَعُمَرَ)، إِلَّا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ بَعْدَهُمْ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ! وَمِنْ ذَلِكَ الفَتْرَةِ إِلَى تَارِيخِ اليَوْمِ، أَصْبَحَ النِّظَامُ الإِسْلَامِيُّ لَا يَعْنِي شَيْئًا لِلْعَالَمِينَ غَيْرِ المُسْلِمِينَ، إِلَّا أَنَّنَا فِي سُبُلِهِمْ نَقْتَدِي وَلَا نَهْتَدِي!

إِلَّا أَنَّ الإِسْلَامَ دِينٌ وَدُنْيَا، وَلِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85]. نِظَامُ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الإِسْلَامِ هُوَ مَبْدَأُ المَسَاوَاةِ وَإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، حَتَّى تَكْتَمِلَ نُظُمُ الحَيَاةِ وَفْقًا لِصُورَةِ الإِنْسَانِ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ.

وَمِنْ هُنَا، الإِنْسَانُ هُوَ الجِهَةُ المَسْؤُولَةُ عَنْ تَنْظِيمِ حَيَاةِ النَّاسِ وَفْقًا لِلْعَدْلِ وَالحِكْمَةِ لِجَهَاتِ التَّشْرِيعِ وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ فِي الْجَرَائِمِ، لَا يَسْتَثْنِي أَحَدًا مِنَ الإِفْلَاتِ مِنَ الْمَحْكَمَةِ. أَمَّا الْقَوَانِينُ الْوَضْعِيَّةُ فَتَخْضَعُ لِلإِجْبَارِ وَفْقًا لِلْأَوْلَوِيَّاتِ وَالْبِنَاءِ الطَّبَقِيِّ بَيْنَ النَّاسِ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ الْعَدَالَةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ هِيَ مِمْحَاةُ الْفَقْرِ وَالظُّلْمِ وَالْقَهْرِ

وَالِاسْتِبْدَادِ وَالْجَهْلِ، وَمِصْبَاحٌ مُنِيرٌ لِلْعَقْلِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ. لَكِنْ عِنْدَمَا يُصْبِحُ الْمُثَقَّفُونَ آهَاتٍ لِلْعَدَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، تَكُونُ الشَّعْبَ الْأَسْوَأَ قِيَمًا وَأَخْلَاقًا.

لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

> ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّـهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّـهَ ۚ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

صَدَقَ اللهُ الْعَظِيمُ.

هَذِهِ الْآيَةُ تَتَحَدَّثُ عَنِ الْبَيْعَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَبِيِّ اللهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ، تُوَضِّحُ أَنَّ هَذِهِ الْبَيْعَةَ سَمْعًا وَطَاعَةً، وَلَيْسَتْ بِالْقَهْرِ وَلَا بِالْقُوَّةِ. وَهُنَا يُشِيرُ الْقُرْآنُ إِلَى أَنَّ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ مَبْنِيَّانِ عَلَى الْقِيَمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمُوَافَقَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ. إِلَّا أَنَّ الْإِسْلَامَ دَائِمًا يَرْتَكِزُ عَلَى قِيَمٍ وَأَخْلَاقٍ، وَسَبِيلِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ الْبَيِّنَةِ الَّتِي لَا يَغْشَاهَا الْغِشُّ وَالظُّلْمُ وَالنِّفَاقِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى:

> .{كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّـهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [المائدة: ٨].

هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْإِسْلَامِ تُؤَكِّدُ أَنَّ الْعَدْلَ وَالْقِسْطَ مِنْ أَسَاسَاتِ الدِّينِ، وَأَنَّ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِالْعَدَالَةِ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، لَا لِلسُّمْعَةِ أَوِ التَّكَبُّرِ أَوْ تَلْمِيعِ الصُّورَةِ أَمَامَ النَّاسِ. وَالشَّهَادَةُ بِالْقِسْطِ تَكُونُ بِالْحَقِّ، لَا بِالْجَوْرِ أَوِ الْقَهْرِ وَالِاسْتِبْدَادِ، فَتَكُونُ الشَّهَادَةُ عَدْلًا لَا ظُلْمًا وَلَا اسْتِعْلَاءً عَلَى الْحَقِّ.

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: (لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى). هُنَا يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْعَادِلَ أَوِ الْعَالِمَ لَا يَتَأَثَّرُ بِالْبَغْضِ أَوِ الْكَرَاهِيَةِ أَوِ الْغَبَنِ عَنِ الْحَقِّ؛ فَالْعَدْلُ سَبِيلُ الْحَيَاةِ، وَمِيزَانٌ قِيمَتُهُ عَالِيَةٌ بَيْنَ النَّاسِ. فَوِلَايَةُ السُّلْطَةِ وَإِدَارَةُ الْمُجْتَمَعِ لَا تَسْتَحِقُّهَا إِلَّا أَهْلُ الْعَدَالَةِ وَالْعِلْمِ، لَا أَهْلُ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ. وَلِذَلِكَ فَالظَّالِمُونَ هُمْ أَسَاسُ الْبَأْسَاءِ

وَالضَّرَّاءِ حَوْلَ الْعَالَمِ، فِي أَيِّ كِيَانٍ اجْتِمَاعِيٍّ أَوْ شَعْبِيٍّ.

وَفِي سِيَاقِ فَلْسَفَةِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ، تُدْرِكُ الْإِنْسَانِيَّةُ الْإِيجَابِيَّاتِ وَالسَّلْبِيَّاتِ نَتِيجَةَ مَا تُدْرِكُهُ مِنْ تَحْلِيلٍ اجْتِمَاعِيٍّ. وَدِرَاسَةُ عِلْمِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ تَعْتَمِدُ عَلَى عِدَّةِ أَشْيَاءَ، مِنْهَا:

١. **الْوَجْهُ:** هَذَا الْجُزْءُ مِنْ هَيْكَلِ الْإِنْسَانِ مُرْتَبِطٌ بِالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالْعَيْنِ وَالْأُذُنِ؛ فَكُلُّ مَا يُخَبَّأُ فِي الدَّاخِلِ يَظْهَرُ عَلَى الْوَجْهِ دُونَ إِرَادَةٍ. وَلِإِدْرَاكِ الْمُخَبَّأِ، يَجِبُ مُلَاحَظَةُ تَعْبِيرَاتِ الْوَجْهِ أَوْ تَحْرِيكِ الْمَشَاعِرِ لِكَشْفِ الْحَقِيقَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ خَيْرًا أَمْ شَرًّا.

٢. **اللِّسَانُ:** هَذَا الْجِهَازُ لَا يَنْطِقُ إِلَّا بِمَا يُبَرْمِجُهُ الْقَلْبُ وَالْعَقْلُ مَعًا؛ فَهُوَ يَكْشِفُ التَّفْسِيرَ الدَّاخِلِيَّ لِلشَّخْصِ، حَقِيقَةً أَوْ كَذِبًا. وَلِكِشْفِ الْحَقِيقَةِ، هُنَاكَ سَبَبَانِ: السبب الأول:

تَسْتَطِيعُ مَعْرِفَةَ الْحَقِيقَةِ عَنْ طَرِيقِ (الصَّمْتِ، أَوْ تَدْوِيرِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ فِي الِاتِّسَاعِ). وَهَنَا، "اِتِّسَاعُ الْعَيْنِ" هُوَ تَفْسِيرٌ لِمَعْرِفَةِ ظَوَاهِرِ الْحَقِيقَةِ الْمُخَبَّأَةِ، وَلِذَلِكَ يَصْطَدِمُ أَنْ تُدْرِكَ الْحَقِيقَةَ؛ لِذَا تَتَسِعُ الْعَيْنُ بِصُورَةٍ غَيْرِ إِرَادِيَّةٍ.

السبب الثاني:

الْخُشُوعُ هُوَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ أَوِ الْهَزِيمَةِ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ دُونَ نِزَاعٍ.

الخوارزمية الثانية: خَوَارِزْمِيَّةُ هَيْئَةِ حِمَايَةِ الْقَانُونِ

هَذِهِ الْخَوَارِزْمِيَّةُ تَتَحَدَّثُ عَمَّنْ يَحْمِي الْقَانُونَ الْمُتَوَافَقَ عَلَيْهِ: أَهُوَ الْحَاكِمُ أَمِ الشَّعْبُ؟ لِحِمَايَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ (بَيْنَ الشَّعْبِ وَالْقُوَى السِّيَاسِيَّةِ وَالْقُوَى الْأَمْنِيَّةِ مِنْ عَسْكَرٍ وَشُرْطَةٍ)، يُتَضِحُ أَنَّ الْجِهَازَ الْعَسْكَرِيَّ هُوَ الْمَسْؤُولُ تَمَامًا عَنْ حِمَايَتِهِ، وَفْقًا لِمِعْيَارِ سُلْطَةِ الْقَانُونِ.

وَهَنَا، الْمِيثَاقُ يُنَظِّمُ الْأُمَّةَ بِصُورَةٍ تُوَاكِبُ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ وَكَرَامَةَ الْإِنْسَانِ، وَيَرُدُّ الْحَقَّ وَفْقًا لِلْمِيثَاقِ الْقَانُونِيِّ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ. وَهَذَا الْقَانُونُ يُبِيحُ وَيُمَنِّعُ، وَيُجَرِّمُ وَيَقْتُلُ، وَيَسْجُنُ مُؤَبَّدًا أَوْ بِعُقُودٍ، مَنْ يَتَعَدَّى عَلَى الْحَقِّ بِصُورَةٍ مُبَاشِرَةٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ.

وَمِنْ هُنَا، كُلُّ فَلَاسِفَةِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ - لِكَيْ تَكُونَ لَهُمُ الْحُرِّيَّةُ الْفَرْدِيَّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ (أَوْ كَمَا نُسَمِّيهَا الْحُرِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ) - إِلَّا أَنَّهُمْ تَحَدَّثُوا عَنِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَاللّٰهِ وَالْأَحْكَامِ الرَّبَّانِيَّةِ، لَيْسَتْ نُظُمًا لِلْجَمَاعَةِ، وَإِنَّمَا نُظُمًا لِلْفَرْدِ. لَكِنَّهُمْ أَخْطَأُوا كَثِيرًا فِي فَهْمِ حُكْمِ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ؛ فَنُظُمُ أَحْكَامِ الْفَرْدِ هِيَ نُظُمُ أَحْكَامِ الْجَمَاعَةِ. أَيْ: كُلُّ مَا يُنَظِّمُ الْفَرْدَ يُنَظِّمُ الْجَمَاعَةَ، وَكُلُّ مَا يُنَظِّمُ الْجَمَاعَةَ يُنَظِّمُ الْفَرْدَ، وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ.

وَعِنْدَ تَحْدِيثِنَا عَنْ تَنْظِيمِ حَيَاةِ النَّاسِ وَفْقًا لِهَذِهِ الْخَوَارِزْمِيَّةِ، يُشْتَرَطُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْعَنَاصِرِ أَنْ نُدْرِكَهَا جَيِّدًا:

الْعُنْصُرُ الْأَوَّلُ: الْعِلْمُ

هَذَا الْعُنْصُرُ يُوَسِّعُ الْعَقْلَ لِلْمَعْرِفَةِ وَالْإِدْرَاكِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ. وَعَلَيْكَ أَنْ تُدْرِكَ أَنَّ هَذِهِ الْخَوَارِزْمِيَّةَ تَتَطَلَّبُ أَنْ تَكُونَ نِسْبَةُ الْمُتَعَلِّمِينَ تَتَجَاوَزُ 60% مِنْ نِسْبَةِ السُّكَّانِ، وَأَنْ يَكُونَ لَهُمُ الدِّرَايَةُ الْكَامِلَةُ أَنَّ نِظَامَ الْعَدَالَةِ الْقَانُونِيَّةِ هُوَ أَسَاسُ الْمِيثَاقِ أَلْأَحْكَامِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ الشَّعْبِ وَالْحُكُومَةِ وَجَيْشًا وَشُرْطَةً وَالْعَدَالَةَ

الِاجْتِمَاعِيَّةَ، كَذَلِكَ مَثَلًا، نَأْخُذُ دَائِرَةً جُغْرَافِيَّةً مُعَيَّنَة

هَذَا الْبَلَدُ لَهُ ثَرْوَةٌ تُمَثِّلُ 45% مِنْ ثَرْوَةِ الْعَالَمِ، لَكِنَّهُ حَسَبَ التَّصْنِيفِ الْعَالَمِيِّ يُعَدُّ دَوْلَةً رَقْمًا قِيَاسِيًّا مِنْ حَيْثُ التَّخَلُّفِ الاجْتِمَاعِيِّ. كَطَبِيعَةٍ بَشَرِيَّةٍ مَوْجُودَةٍ

حَوْلَ الْعَالَمِ، يَقْطُنُ هَذَا الْبَلَدَ 40 مِلْيُونَ نَسَمَةٍ لَا غَيْرَ، وَتَمْثُلُ ثَرْوَتُهُ 45% مِنْ ثَرْوَةِ الْعَالَمِ، وَهِيَ كَالْآتِي:

1. **الْمَوَارِدُ الْحَيَوَانِيَّةُ:** يَحْتَلُّ الْمَرْكَزَ الْأَوَّلَ عَالَمِيًّا فِي الثَّرْوَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، بِعَدَدٍ يُقَدَّرُ بِـ250 مِلْيُونَ رَأْسٍ مِنَ الْمَاشِيَةِ، بِمُعَدَّلِ 4 مِلْيُونِ رَأْسٍ لِكُلِّ مِلْيُونِ فَرْدٍ (بَقَرٌ، وَغَنَمٌ، وَضَأْنٌ، وَإِبِلٌ).
2. **الْمِيَاهُ:** يَحْتَلُّ الْمَرْكَزَ الثَّانِيَ بَعْدَ دُوَلِ حَوْضِ النِّيلِ فِي جَنُوبِ أَفْرِيقِيَا مِنْ حَيْثُ الْمَوَارِدِ الْمَائِيَّةِ.
3. **الزِّرَاعَةُ:** يُعَدُّ مِنْ أَكْبَرِ الدُّوَلِ الْمُنْتِجَةِ لِلْمَحَاصِيلِ الزِّرَاعِيَّةِ عَالَمِيًّا، بَعْدَ رُوسِيَا وَأُوكْرَانِيَا.
4. **الْأَرَاضِي الصَّالِحَةُ:** يَحْتَلُّ الْمَرْكَزَ الثَّانِيَ عَالَمِيًّا بَعْدَ رُوسِيَا فِي مِسَاحَةِ الْأَرَاضِي الصَّالِحَةِ لِلزِّرَاعَةِ.
5. **الْبِتْرُولُ:** الْأَوَّلُ أَفْرِيقِيًّا، وَالثَّانِي بَعْدَ السَّعُودِيَّةِ، وَالثَّالِثُ عَالَمِيًّا بَعْدَ رُوسِيَا وَالسَّعُودِيَّةِ فِي إِنْتَاجِ الْمَوَادِ الْبِتْرُولِيَّةِ.
6. **الْجَانِبُ الْأَكَادِيمِيُّ:** الْأَوَّلُ أَفْرِيقِيًّا وَالعَاشِرُ عَالَمِيًّا فِي نِسْبَةِ حَمَلَةِ شَهَادَةِ الْبُرُوفِيسُورِ.

7. **التَّخَلُّفُ الاجْتِمَاعِيُّ:** صُنِّفَ الْأَوَّلَ عَالَمِيًّا فِي التَّخَلُّفِ الاجْتِمَاعِيِّ، وَعَدَمِ الْمَعْرِفَةِ بِمِيثَاقِ الْقِيَمِ، وَالِانْحِطَاطِ الْأَخْلَاقِيِّ، حَسَبَ دِرَاسَةٍ شَمِلَتْ مُعَلِّمِي الْجَامِعَاتِ، وَالْمَرْحَلَتَيْنِ الثَّانَوِيَّةِ وَالْعُلْيَا، وَضُبَاطَ الْجَيْشِ.

نَقْدٌ وَتَسَاؤُلَاتٌ:

- لِمَاذَا يَتَصَدَّرُ صَوْتُ "نَدَى الْقَلَعَةِ" كَمُمَثِّلٍ لِلْمَرْأَةِ السُّودَانِيَّةِ؟ هَلْ هُوَ صَوْتٌ مَشْرُوعٌ أَمْ زُورٌ وَبُهْتَانٌ؟
- هَلْ يَقُومُ النِّظَامُ الْحُكْمِيُّ عَلَى أُسُسٍ عِرْقِيَّةٍ أَوْ نَسَوِيَّةٍ؟
- هَلْ يُمَثِّلُ وَزِيرُ الثَّقَافَةِ الْقِيمَ وَالْحِكْمَةَ؟ أَمْ أَنَّهُ "رَجُلٌ فَزِعٌ"؟
- لِمَاذَا يُوصَفُ بَعْضُ الْمُثَقَّفِينَ (كَبِيبِي، وَأَحْمَدَ كَسْلَا، وَالشِّكْرِي) بِأَنَّهُمْ "مُثَقَّفُو وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ" دُونَ فِعْلٍ اجْتِمَاعِيٍّ حَقِيقِيٍّ؟

وَلاَ أَحْلوَلّة اجْتِمَاعِيَّةٌ أَقَرَّتْ أَنَّ الْمُجْتَمَعَ السُّودَانِيَّ هُوَ كَائِنٌ أَصْلُهُ مِنَ الْهَمَجِ الَّذِينَ لَا يُدْرِكُونَ الْوَبَرَ مِنَ الصُّوفِ، وَلَا الزَّبَدَ مِنَ اللَّبَنِ، وَلَا الشَّمْعَ مِنَ الْعَسَلِ، وَلَا حَتَّى أَنْفُسَهُمْ مِنْ هَيْكَلِ الْبَشَرِيَّةِ! وَلِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ لِلْعَقْلِ الْمُنِيرِ أَنْ تُصَاحِبَهُ نُفُوسٌ عِجَافٌ مَخْبُوءَةٌ قَذِرَةٌ وَتَافِهَةٌ. وَلِذَلِكَ، عِلْمُ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ يُوَضِّحُ أَنَّ السُّودَانَ أَكْبَرُ دَوْلَةٍ مَوْبُوءَةٍ بِالتَّعَرِّي لِلْقِيمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْكَرَامَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ. حَتَّى السُّلْطَةُ مُنْذُ عَامِ ١٩٥٦م إِلَى الْيَوْمِ تَتَسَوَّلُ لُقْمَةَ الْحَقِّ وَالطَّعَامِ! وَلِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ لِأَهْلِ التَّخَلُّفِ أَنْ تُصَاحِبَهُمُ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِدْرَاكُ وَمَبْدَأُ الْمَسَاوَاةِ أَبَدًا، إِلَّا أَنْ يَتَلَقَّوْا مِنْ أَسَيِّادِهِمْ قَرَارَ تَنْفِيذِ مَبَادِئِ الشَّرِّ وَالْإِهَانَةِ ضِدَّ شُعُوبِهِمْ.

وَلِذَلِكَ لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ جَاهِلٍ أَنْ يَقُودَ أُمَّةً مَهْمَا كَلَّفَ الثَّمَنَ، وَلَا لِأَيِّ إِنْسَانٍ مُتَعَلِّمٍ وَكَذَّابٍ وَمُنَافِقٍ أَنْ يَكُونَ قَائِدًا! وَهُنَا تَأْتِي حَكْمَةُ الْمَعْرِفَةِ لِتَقُولَ: «جَاهِلٌ صَادِقٌ وَأَمِينٌ خَيْرٌ مِنْ مُتَعَلِّمٍ كَذَّابٍ وَمُنَافِقٍ». إِلَّا أَنَّنَا كَشَعْبٍ نَمِيلُ إِلَى الْعِرْقِ أَكْثَرَ مِنَ الدِّينِ، وَالدِّينُ لَا يُمَثِّلُ

الْهَرَمَ الْأَعْظَمَ لِنَفْسِ الْفَرْدِ وَلَا الْجَمَاعَةِ فِي السُّودَانِ، سَوَاءٌ كَانَ عَلَى مُسْتَوَى الشَّعْبِ أَوِ الدَّوْلَةِ أَوِ الْمُنَظَّمَاتِ.

إِلَّا أَنَّ فَلْسَفَةَ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ لَهَا مَقَالَةٌ عَظِيمَةٌ: «كُلَّمَا كَانَتِ الشُّعُوبُ مُتَعَلِّمَةً، كُلَّمَا اخْتَفَى الْجَهْلُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. وَكُلَّمَا عَشَّشَ الْجَهْلُ فِي عَقْلِ فَرْدٍ مُتَعَلِّمٍ، يَحْسِبُ أَنَّهُ مَرِيضٌ نَفْسِيٌّ أَوْ لَهُ خَلَلٌ فِي الذِّهْنِ!». وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوِيَ الْجَهْلُ وَالْعِلْمُ فِي عَقْلِ الْفَرْدِ إِلَّا إِذَا كَانَ الْفَرْدُ قَدْ تَعَلَّمَ فَقَطْ مَبَادِئَ الْكَرَاهِيَّةِ وَالْعُنْصُرِيَّةِ وَالْفُضُولَ عَلَى النَّاسِ، وَهَذَا يُعَدُّ تَخَلُّفًا أَنْ يَسْتَنْكِرَ التَّخَلُّفَ: دَوْلَةً، وَشَعْبًا، وَمُثَقَّفِينَ، وَسَاسَةً، وَأَسَاتِذَةً، وَمُفَكِّرِينَ، وَعُلَمَاءَ دِينٍ تَحْتَ لِوَاءِ الْجَاهِلِ الْأَرْنَعِ!

وَهَنَا قَالَ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ:

> النَّاسَ لَا تَحْبِسُوهُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ،
> وَلَا تَنْكُدُوا مَاضِيَ الْجَاهِلِينَ الْأَرَانِعِ!

"فَهَنَا لَا يَسْتَطِيعُ الْجَاهِلُ أَنْ يُؤَسِّسَ مُجْتَمَعًا وَفْقًا لِمِعْيَارٍ قِيمِيٍّ وَأَخْلَاقِيٍّ. مِيثَاقُ الْإِسْلَامِ لَهُ قِيمَةٌ كَبِيرَةٌ، وَلَهُ مَبْدَأُ الْمَسَاوَاةِ فِي الْحُقُوقِ؛ كُلٌّ مِنَ الْأَمْنِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْعِلَاجِ وَالْمَعَاشِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ وَأَطْفَالٍ وَصُمٍّ وَبُكْمٍ وَمُعَاقِينَ. لَكِنْ لِلْأَسَفِ، النِّظَامُ الْحُكُومِيُّ السُّودَانِيُّ لَا يَفْقَهُونَ الْمَعْرَفَةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ ضَالُّونَ عَنِ الْحَقِّ وَسَارِقُونَ حُقُوقَ الشَّعْبِ. وَالسَّادَةُ مِنْهُمْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا التَّسَوُّلَ مِنْ دُوَلِ الْعَالَمِ، وَمِنْ ضِمْنِهِمُ السَّعُودِيَّةُ وَكَثِيرٌ مِنَ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ بَنْكُ النُّقُودِ الدَّوْلِيِّ.

لَكِنْ سُؤَالٌ مُهِمٌّ: مَنْ هُوَ الْمُسْتَفِيدُ مِنَ تَفَشِّي الْفَقْرِ وَالتَّخَلُّفِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَعَدَمِ الْوَعْيِ؟ لِكَيْ نُجِيبَ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَدْرِكَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، مِنْهَا الْمِحْوَرُ الْجُغْرَافِيُّ السُّودَانِيُّ؛ كَانَ جُزْءًا مِنَ الْحَضَارَةِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْمَعْلَمِ الْجُغْرَافِيِّ لِلْمَمْلَكَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، وَجُزْءًا مِنْ أَحْكَامِ التَّشْرِيعِ مِنْ عَهْدِ سَيِّدِنَا مُوسَى وَسُلَيْمَانَ وَعِيسَى وَهَاجَرَ. وَكَثِيرٌ مِنْ أَحْكَامِ التَّشْرِيعِ عَلَى مَمَرِّ التَّارِيخِ فِي الْأَرْضِ فَغُيِّبَتْ عَنْهُمُ الْمَعْرَفَةُ،

وَتَمَّ اسْتِيلَاءُهُمْ مِنْ قِبَلِ الْإِسْكَنْدَرِ الرُّومَانِيِّ (أَوْ رُومَا الْقَدِيمَةِ). وَلِذَلِكَ أَصْبَحَ الْفَرَاعِنَةُ السُّودُ هُمْ بَقَايَا مُتَشَتِّتَةً حَوْلَ الْقَرْنِ الْجُغْرَافِيِّ فِي الشَّرْقِ الْأَفْرِيقِيِّ: كُلٌّ مِنَ السُّودَانِ حَالِيًّا، وَأَسْمَرَةَ، وَإِثِيوبِيَا، وَجِيبُوتِي، وَالصُّومَالِ، وَتَشَادَ. هَذِهِ الشُّعُوبُ مِنَ الْمِحْوَرِ الْجُغْرَافِيِّ الشَّرْقِيِّ لِأَفْرِيقِيَا (كُوشِينَ وَنُوبَةٍ) فَقَطْ، لَا غَيْرَ، وَهُمْ لَيْسُوا بِزُنُوجٍ وَلَا عَرَبٍ. وَمِنْهُمْ كُوشِينَ وَفَرَاعِنَةَ وَنُوبَةٍ، لَكِنَّهُمْ ثَأَرَتْ عَلَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَفُرِّقَتْهُمْ. وَكَانَ لِسَانُهُمْ بَيْنَ ثَلَاثِ لُغَاتٍ: الْعِبْرِيَّةِ، وَالسُّرْيَانِيَّةِ، وَالْفِرْعَوْنِيَّةِ. إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الْمَعْرَفَةَ غُيِّبَتْ وَطُمِسَتْ، وَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ ثَقَافَةً بِغَيْرِ ثَقَافَتِهِمْ.

وَلِعَلْمٍ وَالْمَعْرَفَةِ، شُعُوبُ الْحَضَارَةِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ لَيْسُوا الْحَالِينَ كَشَعْبٍ؛ لِأَنَّ عِلْمَ الْآثار وَالنُّقُوشَ والإهرامية فِي الْأَهْرَامَاتِ، لِلنَّاسِ يُشْبِهُونَ أَهْلَ السُّودَانِ وَلَيْسَ أَهْلَ مِصْرَ الْحَالِيِينَ. عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ مِصْرَ، نَتَحَدَّثُ عَنْ أَهْلِ السُّودَانِ مِنْ مَنْبَعِ النِّيلِ الْأَزْرَقِ إِلَى مَصَبِّهِ،

وَمِنَ الْفَيُومِ إِلَى تَكَوْيَا وَتُمْبُكْتُو. وَهُنَا الْعَالَمُ أَصْبَحَ لَا يُخْفَى عَنْهُ شَيْءٌ بِمِعْيَارِ الْمَعْرِفَةِ وَوَسَائِلِ الْإِتِّصَالِ فِي الْأَلْفِيَّةِ الثَّالِثَةِ. وَلَكِنْ فِي الْعُقُودِ الْبَعِيدَةِ، هُمْ اِسْتَخْدَمُوا وَسَائِلَ طَمْسِ الْمَعْرِفَةِ وَالْهُوِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ لِشُعُوبِ حَضَارَةِ وَادِي النِّيلِ، وَتَمَّ تَشْتِيتُهُمْ لِلِاسْتِيلَاءِ عَلَى أَرَاضِيهِمْ وَثَقَافَتِهِمْ وَحَضَارَاتِهِمْ مِنْ قِبَلِ إِمْبِرَاطُورِيَّاتٍ اِسْتَعْمَرَتِ الْعَالَمَ بِفَرْضِ الْقَهْرِ وَالْإِسْتِبْدَادِ.

وَمِنْ هُنَا، كُلُّ عُلَمَاءِ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةِ أَدْرَكُوا أَنَّ عِلْمَ الْمَعْرِفَةِ الْبَشَرِيَّةَ يُدْرَسُ حَالَةَ الْإِنْسَانِ وَفْقًا لِمَعَايِيرِ الْهُوِيَّةِ وَالْإِعْلَامِ الْأَثَرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَالْعَقَائِدِ مِنْ نَاحِيَةِ التَّدَيُّنِ. وَهُنَا خُوَارِزْمِيَّةُ هَيْئَةِ حِمَايَةِ الْقَانُونِ تُسْتَنَدُ عَلَى مَبْدَأِ الْمَسَاوَاةِ وَالْأَعْرَافِ وَمِيزَانِ الْعَدَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ. وَهَذِهِ الْخُوَارِزْمِيَّةُ تُنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ عَدِيدَةٍ مِنْ شَكْلِيَّاتِ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ، وَهِيَ:

١. **وِزَارَةُ الدَّاخِلِيَّةِ**
٢. **وِزَارَةُ الدِّفَاعِ**

٣. **وِزَارَةُ الصِّحَّةِ**
٤. **وِزَارَةُ الْعَدْلِ**
٥. **وِزَارَةُ الشُّؤُونِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ**

وَمِنْ هُنَا يَتَبَادَرُ لِلذِّهْنِ: لِمَاذَا وِزَارَةُ الدَّاخِلِيَّةِ وَالدِّفَاعِ وَالصِّحَّةِ؟ هَذِهِ الْوِزَارَاتُ لَهَا عَلَاقَاتٌ تَكَافُلِيَّةٌ كَبِيرَةٌ فِيمَا بَيْنَهَا مِنْ حَيْثُ بَرْنَامَجُ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ. وَمِنْ هُنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ وِزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ تَعْنِي الشُّرْطَةَ، أَوْ مَا يُعَادِلُهَا (*Police*) - هَذِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ نَاحِيَةٍ إِنْجْلِيزِيَّةٍ لَهَا مَعَانٍ كَثِيرَةٌ مِنْ مَدْلُولَاتِ رَاحَةِ النَّفْسِ وَالطُّمَأْنِينَةِ. وَيَشْتَرِطُ عَلَى أَيِّ رَجُلٍ مِنَ الشُّرْطَةِ أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَرْكَانًا أَسَاسِيَّةً، وَهِيَ:

١. أَنْ يَكُونَ مُهَذَّبًا.
٢. أَنْ يَكُونَ مُنَظَّمًا.
٣. أَنْ يَكُونَ لَهُ حَاسَّةٌ اسْتِخْبَارَاتِيَّةٌ عَنْ وُجُوهِ النَّاسِ.
٤. أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّمًا.
٥. أَنْ يَكُونَ ذَكِيًّا.

هَذِهِ الْأَرْكَانُ قَوَاعِدُ أَسَاسِيَّةٌ فِي أَيِّ شُرْطِيٍّ وَفْقًا لِمِعْيَارِ رَجُلِ الشُّرْطَةِ. وَهُنَا عِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَمْنِ الدَّاخِلِيِّ، نَتَحَدَّثُ عَنْ وِزَارَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَوِزَارَةِ الْعَدْلِ. وَهُنَا تُحْسَبُ الْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا عَلَاقَةً تَتَنَاسَبُ تَنَاسُبًا طَرْدِيًّا وَفْقًا لِمِعْيَارِ الأمن القَوْمِيُّ الدَّاخِلِيُّ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ أَنَّ وِزَارَةَ الدَّاخِلِيَّةِ هِيَ الجِهَةُ المُخْتَصَّةُ بِبَرْنَامِجِ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ، وَهِيَ السُّلْطَةُ التَّنْفِيذِيَّةُ لِقَوَانِينَ وِزَارَةِ العَدْلِ الَّتِي تَمَّ تَشْرِيعُهَا فِي الْمَجْلِسِ التَّشْرِيعِيِّ، وَفْقًا لِلْمِيثَاقِ الَّذِي وُضِعَ. إِلَّا أَنَّ الشَّعْبَ هُوَ كَذَلِكَ مُنْوَالُ مَشْرُوعٍ لِفَرْضِ الْأَمْنِ؛ إِذًا تَكَافَلَتِ الْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمْ: وِزَارَةُ الدَّاخِلِيَّةِ وَأَجْهِزَةُ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ الدَّاخِلِيِّ.

وَعِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَمْنِ، نَتَحَدَّثُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي تُحْفَظُ بِهَا أَمْنُ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ. وَهُنَا نَجِدُ أَنَّ الشُّرْطَةَ لَهَا عَلَاقَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جِهَازِ الِاسْتِخْبَارَاتِ العَسْكَرِيَّةِ؛ لِتَلَقِّي الْمَعْلُومَاتِ مِنْ جِهَاتِ الِاخْتِصَاصِ. لَكِنْ فِي دُوَلِ الْعَالَمِ الْمُتَخَلِّفِ (الثَّالِثِ)، هُنَا نِظَامُ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ فَرْضِيَّةٌ قَهْرِيَّةٌ قَاتِلَةٌ وَمُمِيتَةٌ، تُخَالِفُ كَرَامَةَ

الْبَشَرِ وَمَحَاسِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ. وَلِذَلِكَ نَجِدُ أَكْثَرَ النُّظُمِ مُتَخَلِّفَةً فِي الْعَالَمِ هِيَ النُّظُمُ الَّتِي تُتَبَنَّى عَلَيْهَا مَفْهُومَ العُبُودِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ.

وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ فَظَّةٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ، لَكِنَّهَا فَرْضِيَّةٌ أَنْ تُقَالَ وَفْقًا لِنُظُمٍ كَثِيرَةٍ فِي الْعَالَمِ: أَنَّهُمْ ضِمْنَ مُنْوَالِ العُبُودِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، بِمَعْنًى آخَرَ: لَا تُوجَدُ صَحْوَةٌ عَقْلِيَّةٌ، وَلَا حَتَّى الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ مُثَقَّفُونَ تَحْتَ نِظَامِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ (نِظَامِ العُبُودِيَّةِ العَقْلِيَّةِ). إِلَّا أَنَّهُمْ لَا تُصْلَحُ مَعَهُمْ إِلَّا الْقُوَّةُ الْمُمِيتَةُ أَوِ الْقَهْرُ وَالِاسْتِبْدَادُ، حَتَّى الْمُثَقَّفِينَ مِنْهُمْ! لِذَلِكَ نَجِدُ نِظَامَ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ هُنَا فَرْضِيًّا قَهْرِيًّا وَتَخْوِيفِيًّا، حَتَّى الشَّعْبَ يُدْرِكُ أَنَّ النِّظَامَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ؛ لِأَنَّهُ مَكْرُوهٌ بِأَفْعَالِهِ الشَّنِيعَةِ وَالْفَظِيعَةِ.

وَهُنَا الدَّوْلَةُ تَحْسَبُ نَفْسَهَا فِي سَبِيلِ حَكِيمٍ رَاشِدٍ، لَكِنِ العَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ. وَمِنْ هُنَا تَكُونُ السُّلْطَةُ الرَّاشِدَةُ لَهَا الدِّرَايَةُ الْكَافِيَةُ بِالْهُوِيَّةِ. وَعِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ النِّظَامِ

الْحُكُومِيِّ وَالنِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ مِنْ حَيْثُ الْهُوِيَّةِ، فَالسُّلْطَةُ الرَّاشِدَةُ لَهَا مَقَايِيسُ تُتَبَنَّى عَلَيْهَا: بِمَفْهُومِ الْعَدَالَةِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْعَدَالَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ.

وَمِنْ ضِمْنِ هَذِهِ الْمَقَايِيسِ:

١/ الْعِلْمُ.

٢/ بَرَامِجُ التَّوْعِيَةِ الصِّحْوِيَّةِ لِلْمُجْتَمَعِ.

٣/ نِظَامُ الْأَمْنِ الدَّاخِلِيِّ يَتَّبِعُ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى، بِمَعْنَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَقَلِّ مَجْلِسٍ يُمَثِّلُ الْمُجْتَمَعَ إِلَى أَكْبَرِهِ؛ بِمَعْنَى أَنَّ الشُّرْطَةَ الشَّعْبِيَّةَ هِيَ جِهَازٌ مُخْبِرٌ لِنِظَامِ السُّلْطَةِ الرَّاشِدَةِ.وَهَنَا الْمَقْصُودُ مِنَ **الشُّرْطَةِ الشَّعْبِيَّةِ** هُوَ الْمُوَاطِنُ نَفْسُهُ، هُوَ الْجِهَازُ الْمُتَّصِلُ مَعَ إِدَارَةِ الشُّرْطَةِ الْقَانُونِيَّةِ. هَذَا الْحَقُّ لَا يَكْفُلُهُ إِلَّا لِلْمُوَاطِنِينَ فَقَطْ، وَلِذَلِكَ نَجِدُ الدَّوْلَةَ تُقَلِّلُ مِنْ جَرَائِمَ الْقَانُونِ، وَتُقَلِّلُ مِنْ قِيمَةِ الْإِنْفَاقِ لِغَيْرِ الْمُوَاطِنِينَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِصَادِيَّةٍ؛ لِأَنَّ الْمِيزَانِيَّةَ الْحُكُومِيَّةَ تَعْتَمِدُ وَفْقًا لِكَثَافَةِ السُّكَّانِ فَقَطْ. أَيْ: زِيَادَةٌ تَكُونُ عَائِقًا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ مَعًا.

وَمِنْ هُنَا، تَسْتَطِيعُ الدَّوْلَةُ أَنْ تُعَرِّفَ عَدَدَ الْأَجَانِبِ فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْحُدُودِ الْجُغْرَافِيَّةِ، وَأَيَّ شِبْرٍ يَتَّبِعُ لَهُمْ. وَهَنَا - طَبْعًا - يُـمْنَعُ لِأَيِّ مُوَاطِنٍ أَنْ يُضَيِّفَ أَيَّ إِنْسَانٍ أَجْنَبِيٍّ، وَيُجَرَّمُ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلَهُ. وَهَنَا أَيُّ شَخْصٍ أَجْنَبِيٍّ عَلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَ نَفْسَهُ لِجِهَاتِ شُؤُونِ الْأَجَانِبِ، وَفْقًا لِقَانُونِ الْأَجَانِبِ وَقَانُونِ حِمَايَتِهِمْ، الَّذِي يَكْفُلُ لَهُمْ حُقُوقَ الْأَكْلِ، وَاللِّبَاسِ، وَالْأَمْنِ، وَالْحِمَايَةِ الْكَافِيَةِ. وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْأَجَانِبُ جُزْءًا مِنَ الْمُجْتَمَعِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ؛ بِمَعْنَى أَنْ لَا يَظْهَرُوا فِي الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ (كَالْحَدَائِقِ، وَالْمَنْتَزَهَاتِ، وَغَيْرِهَا) إِلَّا بِإِذْنِ جِهَاتِ الِاخْتِصَاصِ.

وَلِذَلِكَ، نَجِدُ عَلَاقَةً كَبِيرَةً بَيْنَ جِهَازِ الشُّرْطَةِ وَالْمُجْتَمَعِ، وَكَذَلِكَ بَيْنَ الشُّرْطَةِ وَوِزَارَةِ الْعَدْلِ، وَجِهَازِ الِاسْتِخْبَارَاتِ؛ جَمِيعُهُمْ يَعْمَلُونَ تَحْتَ خِدْمَةِ الْوَطَنِ وَالْمُوَاطِنِ، وَلَيْسَ لِأَنْ تُوَجَّهَ هَذِهِ الْأَجْهِزَةُ ضِدَّ الْمُوَاطِنِ.

وَلِكَيْ يَتَوَفَّرَ الْأَمْنُ، عَلَى الدَّوْلَةِ أَنْ تَسْتَجِيبَ لِبَعْضِ الْعَنَاصِرِ الْأَسَاسِيَّةِ:

١. عَلَى الدَّوْلَةِ أَنْ تَسْتَأْصِلَ الْفَقْرَ تَمَامًا.

٢. أَنْ تَمْحُوَ الْبِطَالَةَ تَمَامًا.

٣. أَنْ تَمْنَعَ الْمُخَدِّرَاتِ مَنْعًا بَاتًّا.

٤. أَنْ تَمْنَعَ جَمِيعَ الْخُمُورِ الْمُسْكِرَةِ.

٥. أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مُوَاطِنٍ رَاتِبٌ يُعَادِلُ ٣٠٪ مِنْ دَرَجَةِ (١٤).

٦. أَنْ يَقْضِيَ كُلُّ مُوَاطِنٍ الْخِدْمَةَ الْوَطَنِيَّةَ (مَا يُعَادِلُ دَرَجَةَ التَّاسِعَةِ)، وَحَقُّ الْخِدْمَةِ الوطنية ما يعادل مِنَ **الدَّرَجَةِ التَّاسِعَةِ**، وَحَقَّ الْخِدْمَةِ يَتَضَمَّنُ امْتِلَاكَ مَنْزِلٍ وَسَيَّارَةٍ وَرَأْسَ مَالٍ لَا يَقِلُّ عَنْ ٢٥٠ جِرَامًا مِنَ الذَّهَبِ طِيلَةَ فَتْرَةِ الْخِدْمَةِ الْوَطَنِيَّةِ الَّتِي لَا تَقِلُّ عَنْ ٥ سَنَوَاتٍ. يُؤَهِّلُ مُوَظَّفَ الْخِدْمَةِ الْمَدَنِيَّةِ، وَهُنَا الدَّوْلَةُ لَهَا الْحَقُّ أَنْ تُجْبِرَ أَيَّ مُوَاطِنٍ عَلَى أَدَاءِ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ؛ خَوْفًا مِنَ آهَاتِ الْمُسْتَقْبَلِ الْغَيْبِيِّ، وَتَأْسِيسِ الشَّخْصِيَّةِ لِحِمَايَةِ الْوَطَنِ وَالشَّعْبِ وَنَفْسِهِ. كَذَلِكَ لِتَنْفِيذِ هَذَا الْبَرْنَامَجِ، يَشْتَرِطُ عَلَى الدَّوْلَةِ أَنْ تَبْنِيَ مَوَارِدَهَا

الْاقْتِصَادِيَّةَ (مَوَارِدَ غَيْرَ قَابِلَةٍ لِلنَّفَادِ)، وَأَنْ تَكُونَ مَسْؤُولَةً تُجَاهَ الْمُوَاطِنِ وَالْأَلَمِ الَّذِي يُصِيبُهُ، وَأَلَّا تَعْتَمِدَ فِي مِيزَانِيَّتِهَا عَلَى الْجَمَارِكِ وَالْعُقُوبَاتِ أَسَاسًا لِمَوَارِدِ السُّلْطَةِ. وَعَلَى الدَّوْلَةِ أَلَّا تُوَاجِهَ الشَّرَّ تُجَاهَ دُوَلِ الْعَالَمِ مَهْمَا كَلَّفَ الثَّمَنُ؛ فَالسَّلَامُ وَالْمَحَبَّةُ خَيْرٌ مِنَ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

يَجِبُ أَنْ تَكُونَ السُّلْطَةُ الْقَائِمَةُ خَالِيَةً مِنْ شَوَائِبِ الْمُؤَثِّرَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ نِظَامُ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ خَالِيًا مِنْ تَدَخُّلِ الْأَيْدِي الْأَجْنَبِيَّةِ، حَتَّى لَوْ كَانَ الْحَمَلَةُ مِنْ أَبْنَاءِ الْوَطَنِ حَامِلِي الْجَوَازَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ؛ فَلَا يَحِقُّ لَهُمُ الِانْتِمَاءُ إِلَى سُلْطَةِ الْقَرَارِ أَوْ الْعَمَلِ فِي مَنَاصِبَ تَنْفِيذِيَّةٍ أَوْ تَشْرِيعِيَّةٍ. لِأَنَّ غَالِبَ حَمَلَةِ الْجَوَازَاتِ يُسَاهِمُونَ فِي قَضَايَا تُضَادُّ الْمُوَاطِنَ وَنِظَامَ السُّلْطَةِ.

يَشْتَرِطُ عَلَى النِّظَامِ السِّيَاسِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَاقَةٌ وَثِيقَةٌ مَعَ النِّظَامِ الْاقْتِصَادِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ، وَأَلَّا يَخْضَعَ لِسِيَاسَاتِ التَّفْكِيكِ الْجُزْئِيِّ أَوْ تَفْشِي الْفَقْرِ وَالْبَطَالَةِ.

هُنَا يَكُونُ النِّظَامُ مُتَّسِقًا بِمَشْرُوعِيَّةِ تَحْمِي الْوَطَنَ وَالْمُوَاطِنَ وَالسُّلْطَةَ وَالْقُوَّاتِ الْعَسْكَرِيَّةَ، وَتَحْفَظُ الْمَوَارِدَ الْاقْتِصَادِيَّةَ مِنَ الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ. هُنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ دَوْلَةِ الْمُوَاطَنَةِ الْمَشْرُوعِيَّةِ، بِحَقٍّ لِلشَّعْبِ تُجَاهَ الدَّوْلَةِ، وَحَقٍّ لِلدَّوْلَةِ تُجَاهَ الشَّعْبِ. وَمِنْ هُنَا يَتَضَحُ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ خَلَقَهُ اللَّـهُ لِيَكُنْ ذُو قِسْطٍ مُبِينٍ، وَلَيْسَ أَنْ يَأْمُرَ بِالظُّلْمِ وَعَدَمِ الْعَدَالَةِ. هَذِهِ السُّلْطَةُ مَكْفُولَةٌ لِأَيِّ مَوَاطِنٍ أَيًّا كَانَ لَوْنُهُ أَوْ لِسَانُهُ أَوْ دِينُهُ؛ فَكُلُّ النَّاسِ يَتَسَاوَوْنَ فِي الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ، حَتَّى الْقَائِدُ الْعَامُّ فِي الْجَيْشِ أَوْ رَئِيسُ الْجُمْهُورِيَّةِ. أَمَّا الْأَرْزَاقُ فَبِيَدِ اللَّـهِ، وَلَيْسَ لَنَا بِهَا شَأْنٌ، لَكِنْ يُشْتَرَطُ أَنْ يَكُونَ الْمَالُ مَشْرُوعًا مُوَافِقًا لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَالْقَانُونِ. وَعِنْدَمَا نَتَحَدَّثُ عَنِ السُّلْطَةِ الرَّاشِدَةِ، نَتَحَدَّثُ عَنِ النِّظَامِ الَّذِي يَحْكُمُ الشَّعْبَ؛ فَأَيُّ نِظَام

لَازِمٌ أَنْ تَتَوَفَّرَ فِيهِ عَنَاصِرُ أَسَاسِيَّةٌ:

١. **النِّظَامُ السِّيَاسِيُّ**،

٢. **النِّظَامُ الاجْتِمَاعِيُّ**.

هَذَانِ النِّظَامَانِ هُمَا أَسَاسُ إِدَارَةِ المُجْتَمَعِ وَالسُّلْطَةِ.
وَإِذًا، أَيُّ سُلْطَةٍ خَالِيَةٌ مِنْ هَذَيْنِ النِّظَامَيْنِ تُعْتَبَرُ سُلْطَةً غَيْرَ مَشْرُوعَةٍ لِأَهْلِ نِظَامِ الْعَدَالَةِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْعَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ. هَذَانِ النِّظَامَانِ مُرتبِطَانِ بِنِظَامِ أَمْنِ الدَّوْلَةِ أَوِ السُّلْطَةِ.

وَهُنَا سُؤَالٌ يَطْرَحُ نَفْسَهُ: مَا هِيَ صِفَةُ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ النِّظَامِ السِّياسِيِّ وَالدَّوْلَةِ؟
النِّظَامُ السِّياسِيُّ يَعْتَبِرُ الْجِهَازَ المُشَرِّعَ لِنِظَامِ الاقْتِصَادِ، وَالمَشْرُوعِيَّةِ لِلسُّلْطَةِ، وَنِظَامِ الْعَلَاقَاتِ الْخَارِجِيَّةِ (أَوْ مَا نُسَمِّيهِ السِّياسَةَ الْخَارِجِيَّةَ). وَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا تَتِمُّ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ هَذَا الْجِهَازِ. وَلِذَلِكَ، نَجِدُ أَنَّ أَيَّ دَوْلَةٍ يَلْزَمُهَا جِهَازٌ مُشَرِّعٌ فِي صُنْعِ الْقَرَارِ، وَالنِّظَامِ السِّياسِيِّ، وَالنِّظَامِ الاقْتِصَادِيِّ، وَحَتَّى النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ.
فَالْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا كَبِيرَةٌ لِلْغَايَةِ.

وَإِذَا وُجِدَ نِظَامٌ حُكُومِيٌّ مِنْ غَيْرِ نِظَامٍ سِيَاسِيٍّ، يُعْتَبَرُ النِّظَامُ الْحُكُومِيُّ غَيْرَ مَشْرُوعٍ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ

الَّتِي تَقْهَرُ وَتُسْبِدُ وَتُجْرِمُ.

لَكِنَّ الْفَقْرَ مَلْعُونٌ وَمَكْرُوهٌ، وَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُ الَّذِينَ قَهَرَهُمُ الْفَقْرُ وَالْجُوعُ وَالتَّسَوُّلُ. وَهُنَا يَجِبُ عَلَى السُّلْطَةِ أَنْ تُحَارِبَ الْفَقْرَ وَالْبَطَالَةَ وَالْجَهْلَ؛ وَإِلَّا تَصْبِحُ

السُّلْطَةُ وَالْمِيثَاقُ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ، كَغُبَارٍ صَاعِدٍ إِلَى السَّمَاءِ.

وَمِنْ هُنَا، عَلَى أَيِّ سُلْطَةٍ أَنْ تَكُونَ آمِنَةً أَنْ تَتَمَاشَى مَعَ مَبَادِئِ الْعَدَالَةِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْعَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ؛ لِكَيْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُ النَّاسِ مِنَ الثَّوَرَاتِ وَالتَّدَخُّلِ الْأَجْنَبِيِّ.

كَلِمَةُ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ فِي حَدِّ ذَاتِهَا طُمَأْنِينَةٌ وَرَاحَةُ النَّفْسِ مِنَ الزَّعَرِ وَالْقَهْرِ، وَتُسْتَخْدَمُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَقَايِيسِ. وَمِنْ أَنْوَاعِهَا.

١/ أَمِنَ الْمُجْتَمَعَ؟

٢/ أَمِنَ الْحُدُودَ الْجُغْرَافِيَّةَ؟

٣/ أَمِنَ الْمَنْشَآتِ الْحُكُومِيَّةَ وَالْخَاصَّةَ؟

٤/ حِمَايَةُ الْمُنَشَآتِ الصِّنَاعِيَّةِ.

٥/ الْأَمْنُ الْغِذَائِيُّ.

٦/ أَمِنَ التُّرَابَ مِنَ التَّلَوُّثِ، وَالْفَضَاءَ دَاخِلَ الْغِلَافِ الْجَوِّيِّ؟

المُسْتَعْمَرَاتِ الْقَاتِلَةِ لِلشَّعْبِ. وَعِنْدَمَا نَقُولُ "غَيْرَ مَشْرُوعٍ"، فَالمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ نَاتِجًا عَنْ خِيَارِ الشَّعْبِ، وَلِذَلِكَ تَأْتِي مَنْظُومَةٌ قَهْرِيَّةٌ لِتَحْكُمَ الشَّعْبَ بِالقُوَّةِ. لِذَا نَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ مَشْرُوعَةً. وَالشُّورَى هِيَ خِيَارُ الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَيْسَتِ الفَرْضِيَّةَ الْقَهْرِيَّةَ.

وَقَدْ تَبيَّنَ فِي سَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ أَنَّ كُلَّمَا كَانَ السُّلْطَانُ جَبَّارًا، كُلَّمَا كَانَ الشَّعْبُ كَارِهًا لَهُ، وَالعَكْسُ هُوَ الصَّحِيحُ. إِلَّا أَنَّ الصُّلْحَ هُوَ الْأَمْنُ، وَكَثْرَةُ الْمَالِ أَمْنٌ، وَطُمَأْنِينَةٌ. لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾. فَعِنْدَمَا يَشْتَدُّ الْفَقْرُ، يَهْلَعُ النَّاسُ وَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ أَبَدًا. وَلِذَلِكَ، يَصْبَحُ التَّمَرُّدُ حَتْمًا مَشْرُوعًا فِي عُقُولِ الشَّعْبِ، وِفْقًا لِمَبْدَأِ السُّلْطَةِ الَّتِي تَقْهَرُ وَتَسْتَبِدُّ وَتُجَرِّمُ.

لَكِنَّ الْفَقْرَ مَلْعُونٌ وَمَكْرُوهٌ، وَلَا تَطْمَئِنُّ قُلُوبُ الَّذِينَ قَهَرَهُمُ الْفَقْرُ وَالْجُوعُ وَالتَّسَوُّلُ. وَهُنَا يَجِبُ عَلَى السُّلْطَةِ أَنْ تُحَارِبَ الْفَقْرَ وَالْبَطَالَةَ وَالْجَهْلَ؛ وَإِلَّا تَصْبِحُ

السُّلْطَةُ وَالْمِيثَاقُ فِي مَهَبِّ الرِّيَاحِ، كَغُبَارٍ صَاعِدٍ إِلَى السَّمَاءِ.

وَمِنْ هُنَا، عَلَى أَيِّ سُلْطَةٍ أَنْ تَكُونَ آمِنَةً أَنْ تَتَمَاشَى مَعَ مَبَادِئِ الْعَدَالَةِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْعَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ؛ لِكَيْ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُ النَّاسِ مِنَ الثَّوَرَاتِ وَالتَّدَخُّلِ الْأَجْنَبِيِّ.

كَلِمَةُ الْأَمْنِ الْقَوْمِيِّ فِي حَدِّ ذَاتِهَا طُمَأْنِينَةٌ وَرَاحَةُ النَّفْسِ مِنَ الزَّعَرِ وَالْقَهْرِ، وَتُسْتَخْدَمُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَقَايِيسِ. وَمِنْ أَنْوَاعِهَا.

١/ أَمِنَ الْمُجْتَمَعَ؟

٢/ أَمِنَ الْحُدُودَ الْجُغْرَافِيَّةَ؟

٣/ أَمِنَ الْمَنْشَآتِ الْحُكُومِيَّةَ وَالْخَاصَّةَ؟

٤/ حِمَايَةُ الْمُنَشَآتِ الصِّنَاعِيَّةِ.

٥/ الْأَمْنُ الْغِذَائِيُّ.

٦/ أَمِنَ التُّرَابَ مِنَ التَّلَوُّثِ، وَالْفَضَاءَ دَاخِلَ الْغِلَافِ الْجَوِّيِّ؟